عودة المهاجرين

فأل طيب وروح جديدة

للأستاذ س . ق

قرأت منذ أيام أن سبعة آلاف من المهاجرين الذين تركوا ديارهم و بلادهم على إثر الغارات الجوية قد آثروا العودة إليها على البقاء فى مهاجرهم . وقرأت بعد هذا الخبر حديثا لمعالى وزير الوقاية بأن الرأى قد استقر على منع هجرة غير القادرين الذين يهاجرون على نفقتهم الخاصة .

وكلا الخبرين مفرح وساو ، ولا سيما أولهما ، لما يدل عليه من تغير الروح الضعيفة التى قذفت بهؤلاء الألوف بعيدا عن ديارهم ومواطن أعمالهم تحت تأثير الهلع والذعر اللذين لم يكونا لائقين بأمة مؤمنة صابرة كالأمة المصرية العظيمة .

وكلنا يذكر ذلك الطوفان الآدمى الذى انساب على محطات الاسكندرية عقب الغارة الكبيرة الأولى ، والسيل الذى ظل يتدفق على المحطات والطرق عقب توالى الغارات على الثغر وعلى مدن القنال — فيما بعد — ونذكر حالة الذعر المروع التى كانت تستولى على الجماهير رجالا ونساء وأطفالا . حتى لقد ذهلت بعض الأمهات عن أطفالهن فحملن الوسائد وجئن بها إلى المحطة وهن يحسبنها الأطفال ؛ وحتى لقد شردت النساء عن أهلهن ولم يدر هؤلاء أين ذهبن ، ولا درى أولئك أين ذهبوا .

وكلنا يذكر كيف أضبحت الاسكندرية معطلة المرافق تكاد تجوع وتموت ، لأن العمال هجروها فتعطل دولاب العمل ودبت الفوضى وعم الهلع ، ولولا الجهود الجبارة التى بذلت لوقف هذه الكارثة عن طريق الأوامر العسكرية بعودة العمال ، و إنشاء مناطق للهجرة وتخصيص القطر لنقلهم إليها وإعادتهم اليها ، لساءت العاقبة وأفلت الزمام .

ولقد آوى الى المهاجر غير النساء والأطفال رجال أشداء مفتولو السواعد استمرأ بعضهم رعاية سيدات الهلال الأحمر وسواهن ممن تطوعن لرعاية المهاجرين ، كما استمرأوا رعاية الحكومة ، فتزايد عدد المهاجرين وكتب بعضهم إلى ذويهم يستقدمونهم إلى العاصمة ليستمتعوا بهذه الضيافة الطيبة ! وكانت هذه الروح فضيحة الفضائح .

و بجانب هؤلاء شرد الكثيرون والكثيرات فى بلاد الريف فلم يجدوا مثل هذه الرعاية ، بل تسولوا وجاعوا وثقلوا على أهل الريف الفقراء وانتشرت بينهم الأمراض وكانوا سببا فى ارتفاع الأثمان عليهم وعلى أهل المناطق التى حلوا فيها ، فى الوقت الذى انقطعت مواردهم وتعطلت أموالهم وانعدم إنتاجهم فخسروا وخسر معهم العمل الذى كانوا يقومون به .

كان ذلك بعض ما أحدثته الهجرة المفاجئة تحت تأثير الهلع والذعر . وكان ذلك كله مما يدعو إلى التشاؤم وسوء الظن بعزيمة هذه الأمة وروحها المعنوية وجوهر إيمانها التقليدى . ومهما التمس الإنسان من المعاذير لهذه الحالة فإنه يبقى بعد ذلك أنها جاوزت الحدود المعقولة والمنتظرة فى مثل هذه الكوارث .

فالآن وقد أخذت هذه الأنوف فى العودة إلى مواطنها ، ووجدت وزارة الوقاية نفسها فى موقف يسمح لها بوقف الهجرة الإجماعية يجب أن يغتبط من هالتهم الحالة التى وصفناها وأن يطمئنوا إلى قوة روح الشعب وثبات عقيدته ، وأن يفهموا أن المفاجأة هى التى أنستهم أنفسهم وأذهلتهم عن الاهتداء إلى روحهم العريقة فصنعوا ماصنعوا فى غمرة الفزع ، حتى إذا أنسوا بالخطر ردت عليهم شجاعة الإيمان واطمئنان اليقين ، فعادوا إلى مواطن الخطر طائعين مختارين .

وكما وقعت أخطاء من المهاجرين وقع مثلها من المسئولين عن الهجرة فى أول الأمر فلم يكن هناك تأهب كاف لاستقبال مثل هذه الحوادث ، ولم تكن هناك سياسة مرسومة للهجرة والإيواء ، فرأينا كيف أعدت القطر والسيارات لحمل المهاجرين بعيدا عن مواطنهم بلا حساب لما يصيب المدن ذاتها من وقف لحركة وتعطل للمرافق ، أو يصيب المهاجرين من التشرد فى مهاجرهم المرتجلة ، ويصيب هذه المهاجر من الضيق والاكتظاظ ، ثم رأينا كيف يعاد العمل بعد ذلك إلى المدن التى نقلوا منها حينما تبين تأثير هجرتهم على دولاب العمل وعلى المرافق العامة والخاصة .

ولكن المسئولين تداركوا هذه الأخطاء التى كشفتها لهم التجربة ، وكان من حسن الحظ أن جمعت أمور الهجرة والوقاية فى يد واحدة حازمة وحصرت التبعات ، فسار العمل سيرا منظما ، وخطت وزارة الوقاية خطوات طيبة فى رسم سياسة للهجرة والوقاية انتهت إلى قرارها الذى مر ذكره كما انتهت إلى إنشاء عدد ضخم من المخابىء العامة .

والذين ساءهم فى أول الأمر تخبط السلطات على غير أساس لا بد أن يروقهم الآن وضوح سياسة الوقاية ودعم أسسها واستعدادها للطوارئ بهذه السياسة المعينة المتينة .

* * *

والآن يجب أن نقول : إن مجرد وقف الهجرة لا يكفى لحل المشاكل التى قد تتجدد بتجدد الغارات . فينبغى أن نمضى مسرعين فى السياسة التى رسمت وحددت ، وأن نكمل بعض نواحى النقص فيها ، ولتحقيق ما نشير إليه نتحدث عن النواحى التالية :

أولا — سارت وزارة الوقاية خطا سريعة ثابتة فى إنشاء المخابئ العامة ، فأنشأت منها عددا كبيرا يبلغ حوالى ٢٥٠٠ مخبأ ولا تزال ماضية فى إنشاء مخابئ أخرى ، وهذا عمل محمود من شأنه أن يزيد طمأنينة الناس ، وأن يقيهم شر هزات الفزع عند المفاجآت التالية .

ولكنها بجوار ذلك لا تزال تتراخى فيما يختص بالمخابئ الخاصة ، فقد صدر أمر بإلزام بعض أصحاب البيوت أن ينشئوا مخابئ خاصة لهم ولسكان منازلهم متى بلغ عددهم حدا معينا أو بلغت قيمة العقار قيمة خاصة ، ثم أجل الموعد المضروب مرة ومرة ، ثم قيل : إن السكان سيلزمون بالمساهمة فى تكاليف هذه المخابئ مع أصحاب البيوت . غير أن شيئا معينا لم يبت فيه ، ولم ترسم سياسة حاسمة كما رسمت سياسة للمخابئ العامة ، وكان من جراء ذلك أن وقفت حركة إنشاء المخابئ المنزلية .

وليس فى هذا التراخى والتردد ما يشجع على أن تسير خطوات المخابئ الخاصة مع خطوات المخابئ العامة . ولا نكران لفائدة تلك المخابئ وضرورتها للسكان الذين يؤثرونها على المخابئ العامة البعيدة عن مساكنهم ، ولا مراء فى أن وجود المخابئ المنزلية مما يقوى الروح المعنوية فى السكان ويمنعهم من الاستسلام للخوف ، والخضوع للذعر الذى قد يفقدهم تماسكهم كما حدث قبل الآن .

ثانيا — فيما يختص بفرق الإنقاذ وإطفاء الحريق ورفع الأنقاض والإرشاد إلى مواقع القنابل ، ظهر فى أثناء الغارات الأولى عدم كفايتها ونقص مرانها مما اضطر المسئولين إلى الاستعانة برجال الجيش المرابطين رفع الأنقاض وهم غير مدربين فاستغرق العمل أضعاف الوقت الذى كان يقتضيه لو كانت هناك فرق خاصة مدربة تدريبا فنيا على مثل هذه الأعمال .

ولا بد أن تكون التجربة قد هدت المسئولين إلى مواطن الضعف ، وأن يكونوا الآن قد كونوا هذه الفرق ودربوها تدريبا صحيحا ، فقد قرأت عن ضارب كثيرة قامت بها بعض هذه الفرق فى المنازل الآيلة إلى السقوط ، وذلك تصرف محمود ، وسياسة رشيدة ستظهر آثارها فى ساعة الخطر المقبلة .

ولكن الذى أعلمه من احتكاكى ببعض المتطوعين فى فرق المراقبة وإطفاء القنابل الحارقة ومن اهتمامى الدائم بالوقوف على آخر خطوات هذه الفرق ، يتيح لى أن أنبه القائمين بالأمر إلى أن المتطوعين يجدون كثيرا من الصعوبات فى عدم استكمال الأدوات اللازمة لهم من جهة ، وفى صعوبة التفاهم بينهم وبين بعض رجال البوليس فى مناطقهم من جهة أخرى ، وذلك فضلا على ما يلاقونه من عنت بعض الأهالى الذين لا يقدرون عمل هؤلاء المتطوعين حق قدره ، كما أن بعض المتطوعين ممن لم يحسن اختيارهم يستغلون تطوعهم استغلالا سيئا فى إرهاق الأهلين والتهجم على حرماتهم بلا مبرر .

وكل هذه الهنات ممكن تداركها فى الحدود المعقولة إذا نحن جعلنا خطتنا تدارك الخطر قبل وقوعه ، ولم ننتظر حتى تقع الواقعة ثم نأخذ بعد ذلك فى علاجها علاجا مرتجلا لا يفيد .

وما من شك أن تنظيم هذه الفرق وتوثيق الصلات بينها و بين رجال البوليس وتنقيتها من الواغلين فيها بغير استعداد، وإمدادها بكل الأدوات والوسائل اللازمة فى حدود المستطاع ذو أثر قوى فى حسن أدائها لمهمتها العظيمة ، التى يؤثر أداؤها كما يجب تأثيرا طيبا فى روح السكان وفى اطمئنانهم لقوة فرق المراقبة والإنقاذ والوقاية ، والاطمئنان حالة نفسية تساعد على استقبال الخطر بصبر وثبات .

ثالثا — شرعت وزارة الوقاية فى حملة لتنوير الأذهان فى شؤون الوقاية الشخصية من الغارات ، وهو مشروع جيد ، ولكن السرعة واجبة فيه . فما ندرى متى نستقبل الخطر الحقيق ، فيحسن أن تنتشر هـــذه الحملة فى كل مكان وبجميع الوسائل وفى مستوى جميع الطبقات ، ويمكن استخدام الصحافة ومحطة الإذاعة والأشرطة فى دور السينما ، ولا ضرر من أن يكون عرض هذه الأفلام إجباريا فى كل دور السينما وفى الأجهزة المتحركة التى تذهب لكل الطبقات فى أحيائهم ولا تنتظر حتى يجدوا ثمن تذكرة السينما التى يعجز عنها الكثيرون .

ومما يجب أن تشمله هذه الدعاية ، فوق تعريف الناس بوسائل الوقاية المستطاعة ، أن تمدهم بمعلومات صحيحة عن حقيقة الأخطار التى يتعرضون لها ونسبتها . فالواقع أن الذعر الذى يصيب السكان أكبر من حقيقة الخطر ومن نسبة الإصابات فى المدن المأهولة ، فمن الواجب أن يعلم الأهالى هذه الحقيقة ، وليس معنى هـذا أن تهون من شأن الخطر الذى يتعرضون له ولكن معناه أن نقضى على عنصر المبالغة وعلى الأوهام التى يجسمها الخوف ، من فعل القنابل وتأثير الغارات

وكذلك ينبغى أن تشتمل حملة الدعاية على توثيق الروابط بين المتطوعين والجمهور ببيان قيمة العمل الذى يقومون به والخطر الذى يتعرضون له فى سبيل الخدمة العامة ، وضرب الأمثال بالمتاعب التى يسببها هم الجمهور نفسه بامتناعه عن تنفيذ الإرشادات . ولا مانع من قيام بعض المتطوعين بوذاعات عما يلقونه من مثل هذه الأمور ومناشدة الجمهور أن يتعاون معهم على ما فيه خير الجميع .

* * *

هذه أهم ملاحظاتنا على سياسة الوقاية من الغارات ، وهى جميعا فى حدود المستطاع ، ونعلمها لم تفت القائمين بالأمر ، وهم جديرون بتحقيقها متى أخذوا الأمور أخذ الواقع فى الخطر فعلا ، أو المشارف له ، وليس فى هذا التعبير أية مبالغة فتقلبات هذه الحرب لا تحصى ومفاجآتها لا تعد ، وقد رأينا عاقبة الارتجال فى الماضى فنحن جديرون أن نحتاط للمستقبل بل للحاضر ، فالحاضر ملىء بالمخاوف والأخطار ، ومن شأن الحيطة أن ترد الخوف أمنا والخطر سلاما إن شاء الله ما

س . ق